

مذكرات رشدي العاملي

مكاييات طوائف الفترات

هذه حكاية رشدي العاملي تقدمها المدى فصولاً كتبها الشاعر الذي تأق وتأم كثيراً والصحفي الذي اعطى للفكر الانساني وللعراق دون منة، و(المدى) التي تنفرد بنشر مذكرات رشدي تجدها وثيقة ثقافية تاريخية تكشف عن فصول من حياة شاعر كبير ضاحجة بالصدق والبراءة والقدرة على الاكتشاف.

المدى الثاني



مكايية مذكرات رشدي العاملي

هذه هي الحلقة الاخيرة من مذكرات شاعر الالم والحب والرومانسي السياسي رشدي العاملي، وقد بدأت (المدى) نشر المذكرات صباح الأحد ٤ آذار ٢٠٠٧ حيث ظهرت الحلقة الاولى في هذا المكان كان عنوان ملف المذكرات الاولى (مذكرات عنه اعدادية الكرخ كاملة) ولم يكن رشدي قد وضع ذلك العنوان لكن (المدى) ولا يد من القول ان اجزاء اخرى من مذكرات رشدي عن اعوام ما بعد انتفاضة ١٩٥٢ لم تتوهر بعد، لكن ما دونه رشدي عن صباه وهوته يظل مفعماً بالعاطفة وباستذكار شخصيات ادبية وتاريخية، ذلك ان رشدي العاملي يعد جزءاً اساسياً من ذاكرة العراق الثقافية ومن مكابذاتها.

باسم عبد الحميد حمودي

التهنئة لرئيس اركان الجيش الذي غدا رئيساً للوزراء وفرض الاحكام العرفية ذلك العسكري المسكين نور الدين محمود ثم بدأت البيانات الثورية؛ تصدراها الوزارة الجديدة؛ تشكيل المحاكم العرفية العسكرية، منع التظاهرات والاجتماعات، حظر الحياة الحزبية، تعطيل الصحف المعارضة، واخيراً.. تسعير المواد الغذائية بدأ التسعير بالفتح الشرايكن والكولدن، وانتهى بالشلغم حتى تلك اللحظة لم يكن اغلبية المواطنين يعرفون الفرق بين التفاح الشرايكن والكولدن غير انهم عرفوا اخيراً انهما اسمان للتفاح المستورد من لبنان؛ الابيض والاحمر كان ذلك.

تسعيركم الشلغم

اضافة ثمينة لمعلومات المواطنين غير ان تسعير الشلغم تحول الى نكتة ظلت زمناً طويلاً تجري على الافواه فقد نقل المذيع في غمرة حماس مضحك البرقية التالية الموجهة الى رئيس الوزراء.

تسعيركم الشلغم اثلج صدورنا سيروا على بركة الله.

وانفجرنا بالضحك كانت البرقية مقبلاً راعياً وقع فيه المذيع الذكي، لا شك ان البرقيات الواردة الى الحكومة كانت تذهب بلا تدقيق الى دار الازاعة وتوضع اكداساً بين يدي المذيع ومن هنا فان المذيع المسكين وجد نفسه وهو في غمرة الحماس يسحب تلك البرقية-النكتة ويذيعها بحماس رائع، كما لو كان تسعير الشلغم، إنجازاً تاريخياً لا مثل له في التسعير الحماس يسحب تلك البرقية-الابله.

وهكذا بقينا في تلك الليلة من تشرين الثاني ١٩٥٢، متقلبين بالاسى، ونامت مدينتنا على وقع احذية الجنود، بينما ظلت الابواب الحديدية تلتفخ في موهن اللبيل كل من ضمته قوائم الاعتقالات اعدتها دائرة التحقيقات الجنائية (الامن العامة) لقد انطوت صفحة اخرى جديدة، من تاريخ كفاح الشعبنا.

ارهاصاتاً تموز

ولكن الفترة التي اعقبت انتفاضة تشرين، بكل ما رافقتها من قسوة في الاحكام التي صدرت ضد عدد كبير من الثوريين وبرغم من مظاهر الحكم العرفي العسكري لم تستطع ان تخفي حقيقة، بدت واضحة كل الوضوح، ان الاحكام العرفية والمحاكم العسكرية ونشاط اجزة القمع التي ظهرت من جديد مستعدة للشار من الضربة المفاجئة العنيفة التي واجهتها بها الانتفاضة، ولجوء السلطة الى الاستعانة بالملأ الاخير؛ الجيش، ان كل هذه الاسلحة التي وجهت بها انتفاضة تشرين لم تستطع ابداً ان تخفي ولا لحظة واحدة، وبكل الالوان التي حاولت السلطة وضعها على اللوحة الحقيقية الواضحة، وهي الحقيقة الوحيدة التي تمثلت امام جميع النظارة، بان الانتفاضة بكل احداثها، ومشاهدها ونتائجها وما تخضعت عنه، هي المؤثر الوحيد والعنصر الفاعل، والقوة المحركة والدافع الحيوي، والملم، للحياة اليومية، في النشاط السياسي السري وفي النشاط العلني المناج باضيق صورته واشكاله.. كما انها الانتفاضة كانت بمعنى من المعاني البروقفة شبه النهائية للشورة الكبرى اللاحقة في الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، وبالنسبة لي كانت المشاركة في هذه الانتفاضة، يوماً فيوماً، وساعة بساعة، تجربة زاخرة لا حدود لحيويتها ويقلظتها وديمومتها، انها المعركة الحقيقية الاولى، التي تابعتها منذ لحظاتها الاولى بل منذ اول ارهاصاتها قبل ان تتفجر بذلك الشكل الملحمي الذي بدت لي احداثه لوحة اسطورية تكاد لا تصدق حتى وانا اعيش نبض التفاصيل اليومية، بكل صلابتها وواقعتها واضرارها، بعتماتها وماسويتها.

بعد ايام قليلة، كنت قد انتقلت الى ثانوية الكرخ، برغم معاناة الاستاذ المرحوم علاء الدين الرئيس مدير الاعدادية المركزية الذي حاول ان يثني عن الانتقال من الاعدادية المركزية هو والاستاذ الكبير محمد بهجت الاثري، الذي صادف ان كان في زيارة لدرستنا، وتذكر انذاك الطالب الذي منح الجائزة الاولى في الخطابة قبل عام واحد. غير انني شكرت الاستاذ المدير والاستاذ الاثري اعترازهما بي، وفضلت الالتحاق بثانوية الكرخ القريبة من مسكني.

الفا الصمارة

ولم امكث الا فترة قصيرة في مدرستي الجديدة، اذ سرعان ما كنت ارافق عائلتي الى قصي الجنوب حيث نقل ابني، الى مدينة العمارة، المدينة التي ما تزال سعادة ايامي فيها حلماً من اروع ايام الصبا.



وهكذا.. فقد بدا واضحاً مساء اليوم الاخير للانتفاضة ان الزح بالقوات المسلحة، هو الورقة الاخيرة بيد النظام الحاكم للجم الانتفاضة.

في ذلك المساء الخريفى الشاحب كان الشارع ما يزال ينبض بالغضب عندما اندفعت تظاهرات اخرى، من باب المعظم صوب شارع غازي، كان رجال الشرطة ينسحبون بحذر، واذاعة بغداد تعلن فرض الاحكام العرفية، وتولي رئيس اركان الجيش، رئاسة الوزارة. لقد اختفت ربطات العنق الانيقية والوجه المروعة، الشاحبة لرجال الحكم المخضرمين وراء الخوذة الفولاذية.

اتذكر آخر مشهد، من الملحمة الدامية بضع مئات من المتظاهرين بين باب المعظم ومبنى كلية الاداب القديم، ولافتات ترتفع فوق همامات المتظاهرين وفوهات بنادق اوتوماتيكية يتمركز حولها رجال من الشرطة الخيالة المتمازجة، على سطح مبنى يقطع الطريق بين مصحلة نقل الركاب ومقهى كلية الاداب.. المقهى الذي شهد وجوها عديدة، بدر شاكر السياب، حسين مردان، كاظم جواد، مظفر النواب، شفيق الكمالي، محمد جواد الموسوي، وآخرين.. وآخرين..

صوت فتاة وصدر دمدمحا

فجأة ازت طلقات البنادق، وامامي مباشرة سقط احد حملة اللافتات واثنين الدم من صدره بلون كلمات الشعار، وفجأة ايضاً، من الذعر والصمت المكفهر، ارتجف صوت فتاة عالياً بهتاف، خلته اعلى من صوت الرصاص، وضعت الفتاة منديلاً على الجرح ورفعته مخضباً بالدم، غير ان رصاص رجال الشرطة لم يعرف الخجل، كانت صاحبات التجوال وبدات مهياًة في مفترق الطرقات وكان الجنود يحشرون من يحدونه في الشارع في الشاحنات يسحرون لقد كل موعد منع التجوال وبدات المعتلات تستقبل ضيوفها تلك الليلة الرمادية من تشرين.

تسمرت بين الازقة مع الاخرين حل المساء والظلام الثقيل الكتيب المشبع برائحة الدم والبارود، المني بالحزن والغضب يكتم الانفاس، يضغط بلا رحمة على الحواس، عبرت الجسر القديم، ثمة من يعبرون خفافاً متقلبين بالاسى، مثلي مثل عشرات الالاف الذين فتحوا عيونهم على صباح جديد، وما هم يتحدون باسمه لقد جرأوا على خواطرههم مشاعرا الاسى الذي يجتاح النفوس مثل طوفان داكن الماء.

دلفت الى الدهليز الرطب الطويل المعتم، في بيت عمتي، كان ابي وزوج عمتي السيد مهدي العاني يجلسان متوترين..

-ابن صفاء.. اين ماجد؟

-لا ادري..

-الم ترهما؟

-لا ادري.. لا.. لا..

بيانات نور الدين

صوت المذيع ما يزال ينقل البيانات الكريهة للحكومة العسكرية.. والبرقيات تتوالى.. "تؤيدكم" سيروا على بركة الله الشعب والجيش معكم... و... و... يا بلد البرقيات الكاذبة كنت احرق الارم.

الشعب معكم؟ فهقته قبل ساعات كان الشعب جسداً فذاً كأننا اسطوريا يتحدد على حقل الوطن المفقور.. صوته الغاضب المرتجف يشيع الذعر في قلوب الحكام الذين لا قلوب لهم.. من يتحدث باسمه لقد جرأوا على الحديث الان، بعد ان محت ظهورهم بنادق وحراب الجنود.

عاد صفاء وماجد تسللاً في اللبيل وسط الظلمة، تحت اجنحة الليل السوداء.. جلسنا جميعاً مشدودين نحدي في بعضنا نرقب ابي والعلم ابي صفاء يحسنيان كؤوس العراق الابيض، بينما يواصل المذيع نقل برقيات والبيانات الملكي بالذات.

التجربة مرارة ومعاناة.. تجلد وصبر

في تلك الاونة ايضا تشرين ١٩٥٢ توفقت علاقتي بالشاعر زهير احمد القيسي الذي تعرفت عليه عن طريق الاستاذ انيس زكي حسن. لقد امضينا اسمايات جميلة وممتعة ونحن نترضي سائرين على مهل، في شوارع العيواضية المظلمة باشجار الكالبتوس الخضراء والمفعمة برائحة البيوت الاستقرابية القديمة داخل ذلك الجو الساحر من الغموض الساحر نقرأ الشعر، ونتحدث عما تخزنه ذاكرتنا ويا لذاكرة زهير الغنية ابداً من سير الشعراء العرب، وشعراء الغرب الذين تلقينا قصائدهم مترجمة، هنا وهناك، كان اكثر ما يسحرنا لامارتين والفريد دي موسيه لوردبيرون وشلي.. وقد قيض لي ان اقف طويلاً تحت المطر بعد سنوات طويلة عند بيت قديم ذي شرفة تطل على منظر ساحر، في احدى مدن بلغاريا، عاش فيه لامارتين ربحاً من الزمن، كتب فيه اجزاء من قصيدته الشهيرة (البحيرة).

كان زهير صديقاً حميماً، ورفيقاً باسلاً في الحرب امتدت علاقتي به طويلاً وما تزال.

واذا كانت امسياتنا الطبية الحانية بدأت هادئة هنية فان صداقتنا توفقت هل القول تقولدت في المعركة الوطنية الكبيرة التي خضناها مع جماهير شعبنا ونحن نرفع معا احدى اللافتات في شارع الرشيد، ابان انتفاضة تشرين الثاني ١٩٥٢ المجيدة، التي اقلت بالشاعر زهير القيسي مع من اقلت بهم، في غياب السجون المظلمة.

ان من الصعب اذا لم يكن من المستحيل استعادة كل التفاصيل الدقيقة للاحداث المتشابكة التي جرفنتي وداماتها العنيفة خلال الايام المجيدة التي غمرت بها انتفاضة تشرين الرائعة عقول ومشاعر ملايين الناس في الوطن، والهبت حماسهم الاسطوري والهبت امالهم افاقاً غير محدودة في الطلوع الى مستقبل جديد لحياتهم وحياة الاجيال الفتية القادمة.

ذلك لان مثل تلك التفاصيل هي في مركز اهتمام المؤرخين ومن ادق واجباتهم العملية. واذا كنت احرص على تسجيل بعض الخطوط الجانبية لتلك اللوحة العريضة من الاحداث، فبدافع من فتحي من الزخم، الهائل الذي تركته مشاركتي في الانتفاضة كما فعل عشرات الالاف من ابناء الشعب على بلورة الوعي الثوري لدي، وتفاعلي اليومي النشط مع تلك الروح العالية، من الكفاح البطولي الذي خاضته جماهير شعبنا الغرلاء، في شوارع العاصمة ومدارسها ومعاهدها العالية، وفي المدن العراقية الاخرى، على خريطة الوطن المترامي، من جبال كردستان الشامخ العالية، الى ضفاف شط العرب، في اقصى الجنوب.

كانت الاحداث تتدافع بسرعة محيرة، قد وقع اعتداء غوغائي ورخيص على طلبة كلية الصيدلة، التي تحتل مبنى جانبياً من مباني المستشفى الملكي في باب المعظم ولقد الهب ذاك الاعتداء الذي بدا انه جرى بتحريض من بعض الجهات الامنية، او بمعرفتها او بالاسكوت عنه في الاقل، الهب مشاعرا الجماهير الطلابية التي لم تكن تنتظر الكثير-فيما يبدو- لكي تفتح معركة عريضة مع النظام القائم يومذاك.

وفعلاً، وكما هو متوقع، فقد انطلقت الشرارات الاولى للانتفاضة في المعاهد العالية كلية الطب الهندسة، دار المعلمين العالية (كلية التربية فيما بعد)، الحقوق، الاداب، كلية الملكة عالية (التحرير فيما بعد).

وكما اسلفت فان تفاصيل الاحداث، ستظل مهمة المؤرخين اولا واخراً، انما الذي اذكره كما لو كان حدث بالامس، اننا قمنا باعداد اللافتات في ليلة رابعة باردة من ليالي تشرين الثاني، وقد تولي الخطاط الفنان يحيى جواد، الذي كان يمتلك محلاً صغيراً في منطقة الشوكة يمارس فيه مهنته كخطاط محترف، وهوايته كفناني تشكيللي.

تظاهرات

في تلك الليلة، عبرنا الجسر القديم بينما كانت مياه دجلة تساب ناعمة، وادعة تترك له اجسادنا قشعريرة برد الخريف، واتجهنا وكنا عصابة قليلة الى مبنى القسم الداخلي لكلية الهندسة في مدخل شارع الملك غازي (الكفاح) حيث اخفيت اللافتات داخل بعض الخزانات الخشبية لتسم من طلبة كلية الهندسة، انتظاراً لصباح جديد.

في ذلك الصباح بدأت جموع الطلبة تزحف من المدارس والمعاهد متجهة الى باب المعظم، احد اهم ميادين التجمع الطلابي، وسرعان ما ارتفعت اللافتات لتلف الى جوانبها وخلفها جماهير الطلبة، وجماهير واسعة من ابناء شعبنا وشقت فضاء شارع الرشيد

